

سُئِلَ عَنْهُ: ((مَا يَسْرُهُمْ أَنَّهُمْ عِنْدَنَا)) ... ②

وَمَضَتْ الْبَرْقُ

فَ

ذَكَرَ بَقْضَ مَا أَرَا الشَّيْخَ مَصْعَبُ أَمِيرِ الشَّرْقِ

كَتَبَهَا
أَبُو رُوَيْلَةَ

مجاهد من المغرب الإسلامي

ومصناتُ البرق

في

ذكر بَقْضِ مآثر الشيخِ صَعبِ أميرِ الشرق

كتبها:

أبو رَواحة هشام

مجاهد من المغرب الإسلامي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وصلّ اللهم على محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً

سألني أحد الأجلة^① - ممن نفر حديثاً إلى ساحات الجهاد - من أهل مدينة الخروب (وهي إحدى مدن ولاية قسنطينة^②)، بعث يسأل عن قادة الجهاد في الجزائر الذين عبدوا طريق الجهاد بجماعهم، وبنوا صرحه بجهدهم وأشلائهم وسقوا شجرتة الباسقة بدمائهم وعرقهم...

فجالت بخاطري ذكريات أولئك القادة الأبطال الذين غيهم التاريخ فصاروا نسياً منسياً، ليس لأنهم لم يبنوا مجداً أو لم يخلفوا أثراً، بل وربي.. فأثارهم صارت منارات وصوى تهدي السائرين في الليل البهيم، ودمائهم لا زالت الوقود الذي يحيي هذه الفريضة الغائبة في النفوس.

ولكنهم صاروا نسياً منسياً، لأننا لم نقم بحقهم من بعدهم.. لأننا لم ننشر سيرتهم ونحبي في المجالس ذكرهم، فيتفجع بجميل صنائعهم وكريم عطاياهم وتضحياتهم من لم يعايشهم ويخبر معدنهم.

صاروا نسياً منسياً.. لأننا زهدنا في التعريف برجالنا، بينما افتخر الباطل برجاله، فراح يرفعهم عالياً في السماء وينشر ذكرهم في العالمين، رغم أن رجاله لا يساؤون نعل أحد رجال أمتنا الميامين، فكان حال الباطل وهو يفتخر برجاله كحال الدخان يعلو بنفسه في طبقات الجو وهو وضع.

صاروا نسياً منسياً.. لأن قطاعاً من أمتنا الحبيبة قد غابت عنهم الحقائق، وطففت عندهم الموازين، فلم يعودوا يفرقوا بين الغث والسمين، والشمال من اليمين، فما عادوا يفرقون بين قادتها الحقيقيين

① - هو أحد المجاهدين من شباب مدينة الخروب بولاية قسنطينة.

② - ولاية جزائرية، وهي عاصمة الشرق الجزائري، عرفت هذه المدينة بأنها مدينة العلم والعلماء، وهذا لاحتضانها عدداً من العلماء الأجلاء ومن بينهم الإمام والداعية المصلح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله، كما كانت معاهدها محطاً ومزاراً للعلماء ومنبراً لنشر الدعوة الإسلامية الصافية من شوائب الشرك والبدعة التي انتشرت عبر الطرق الصوفية إبان الاحتلال الفرنسي وبتشجيع من المحتل.

الذين يستحقون وصف القيادة والريادة، وبين تجار الشعارات الجوفاء والدعوات الخرقاء، رغم أن أهل الحق تعرفهم بسيماهم، كما أن أهل الباطل تعرفهم في لحن القول، فرأينا رأي العيان قول نبينا ﷺ: ((سيأتي على الناس سنوات خداعات يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين وينطق فيها الرويبضة. قيل: وما الرويبضة؟ قال: الرجل التافه يتكلم في أمر العامة))

وصاروا نسيا منسيا.. لأن... ولأن...

فعذرا قادتنا.. وعذرا سادتنا.. وعذرا أئمتنا.. وعذرا مشايخنا.. وعذرا أحببتنا..

عذرا لكل حبيب علينا فارقنا ولم نخلد ذكره في العالمين..

عذرا لكل مسلم.. لم نوصل له سيرة هذه النجوم الدراري وهذه الكواكب التي تهدي في الليل البهيم الساري.

عذرا وعذرا ألف مرة..

نعم تأخرنا في إخراج سيرتكم ونشرها بين العالمين.

نعم تأخرنا.. ولكن قسما بالذي فلق الحب والنوى، وهदानا لنعمة الجهاد، أننا ما نسيناكم، وكيف ينسى الإنسان أحبابه، بل كيف ينسى نفسه، فأرواحكم ما زالت ترفرف حولنا، وتقترح علينا خلوتنا ووحدتنا، وصوركم لا زالت تطاردنا في النوم واليقظة..

كيف ننساكم.. وأنتم من علمتمونا كيف يحيا الإنسان سعيدا ويموت شهيدا..

كيف ننساكم.. ومنكم تعلمنا معنى البذل والعطاء لهذا الدين..

كيف ننساكم.. ولا زلنا نلمس فضلكم علينا.

* * *

لأجل هذا رفعت القلم وأعلنت الطلاق بين صمتي وكراسي، وقررت خوض هذه التجربة مع يقيني بأن بضاعتي في الكتابة مزجاة، ولكن حبنا لإخواننا، وشعورنا بالتفريط في حقهم، وعدم نشر ذكرهم ومحاسنهم، وفوق كل ذلك أن ((من أرخ لإنسان فكأنها أحياء)) كما جاء في بعض الآثار.

فكانت بداية هذه التجربة مع رجل من خيرة رجال هذا البلد، رجل تعلمت على يديه الخير الكثير، عرفته سنة 1986م، وأنا لم أجاوز الخامسة عشر من عمري، فرأيت إنسانا قل مثله... إنه شيخنا وحبينا الشيخ أبو أيمن مصعب رحمه الله وطيب ثراه.

فماذا أكتب.. ومن أين أبدأ.. وما عساني أن أقول.. فالشيخ مصعب رحمه الله حياته كلها عطاء وبذل، عاش بالدين وللدين وقتل من أجل الدين...

أأكتب عن أخلاقه..

أأكتب عن زهده وورعه..

أأكتب عن تعلمه وتعليمه..

أأكتب عن جهاده..

أأكتب عن شجاعته ومروءته..

أأكتب عن حبه وعطفه على المجاهدين..

أم أكتب عن ماذا؟

فهو حقا، يحق فيه قول من قال: رجل بألف. ورب رجل بألف، وألف بخفّ.

لأنه حين يكون الحديث عن أصحاب العقائد والمبادئ، أهل البذل والفداء، والتضحية والعطاء، حين يكون الحديث عن عظماء الرجال وقُدوة الأبطال، عن الذين سَطَّروا بعظيم أعمالهم أرقى الفتوحات، وحقَّقوا بأفعالهم أسمى المفاوِز والنَّجَاحات، وأثبتوا أن أُمَّة الإسلام أنجبت نخبة أهل الأرض رفعةً وسموًّا وعزًّا وسؤددا، الذين ترقَّعوا عن سفاسيف الأمور، وسمَّوا عن ملذَّات الحياة وزخر فيها وربَّؤوا بأنفسهم أن تُلَطَّخ أرواحهم بدنسٍ من أدناس الدنيا...

حين يكون الحديث عمّن باعوا لله أرواحهم وأنفسهم استجابة لأمره ويقينا بوعدده، الذين استجابوا لله والرسول وركبوا إلى الله في قوافل السائرين، وعجلوا بإتمام الصفة مع خالقهم وبادروا لإنجازها، وسلّموا سلعتهم لله ربهم ولسان حالهم..

ركضاً إلى الله بغير زاد غير التقي وعمل الرشاد

حين يكون الحديث عن أولئك، لا تملك سرد مبدئهم ومتهاهم وقصصهم سرداً جافاً سطحياً، دون العروج على التفحات الإيمانية واللفحات الوجدانية التي غرّسوها عند كل من عرفهم وتشرف بلقياههم ومجالستهم، لذلك فهم بحق "أهل الله وخاصته"، الذين إذا رأيتهم ذكرت الله، وإذا جالستهم ذكرك بالله، وحرّضوك على الطمع في لقياءه، والإسراع للفوز برضاه، فهم من الله وإلى الله وفي سبيل الله، ربانيون صنّعوا على عينه سبحانه، وآواهم وأيدهم بروح منه وفصلهم على كثير ممن خلق تفضيلاً، صلاتهم ونسكهم ومحياهم ومماتهم وأرواحهم وما يملكون وهبوا لله ربهم.

تربّعوا على عرش القلوب بحسن معشرهم، وطيب خاطرهم، وجمال مجلسهم وروعة حديثهم، ونحسبهم ممن أحبوا الله فأحبهم، ووضع لهم القبول بين عباده وفرش لهم بساط الرفعة بين أوليائه، وما ذاك إلا للأسرار التي بينهم وبين خالقهم، والتي نبأنا بها أفعالهم قبل أقوالهم، فله درهم من قمم شامخة، وجبال راسخة.

هم الرجال إذا ما جئت تمدحهم تسامت على الحرف تيجان وأزهار

ولا عجب في ذلك، فهم الذين اهتدوا فزادهم الله هدىً وآتاهم تقواهم، ورزقهم بإذنه خاتمةً يغبطهم عليها كل مؤمن موقن بما عند الله، تلك هي ما رنوا لأجلها وتسابقوا إليها وحرّضوا عليها، وما يلقاها إلا من اصطفاه الله واختاره، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم..

وقد تجسّدت تلك المحامد واختُصرت في كثير من أهل الهجرة والجهاد، وكان منهم حبيبنا وقرّة عيننا وزهرة فؤادنا أبو أيمن مصعب..

رحل الكرى عن مُقلتي وجفاني وتقرّحت لرحيلكم أجفاني
 نفسي تتوق إلى اللقاء فإنه يزداد عند لقاءكم إيماني
 قد كنت أطمع باجتماع دائم واليوم أفنع باللقاء ثواني
 إنّي لأذكركم إذا نجم بدا وإذا تراءى الفجر للعينان
 إنّي لأذكركم فيسقط في يدي فأظل لا أقوى على التّيان

* * *

ولعل القارئ الكريم.. يستعجل فيقول: فمن هو هذا الشيخ يرحمك الله، وما قصته وسيرته..
 فأقول مستعينا بالله:

أبو أيمن مصعب، اسمه ولقبه الحقيقي: خثير بودالي من مواليد سنة 1965م ببلدية حاسي الغلة دائرة العامرية ولاية عين تيموشنت بالغرب الجزائري، من عائلة ميسورة الحال. متكونة من إحدى عشر فردا، فله إخوة كثيرون وأخوات، ولكن الشيخ كان واسطة عقد إخوته وكوكبهم المتألق.

يتراءى لك جسما نحيلاً وقصيرا يُخفي وراءه جبال العزيمة والرجولة.. وتلمحه شاباً طريراً تُدثر بأحلام الكهولة

عُرف رحمه الله تعالى بالتزامه منذ صغره، ووهبه الله الحكمة وهو فتى! ولا تعجب فإن الله تعالى قال
 عن يحيى بن زكريا ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾، وعقد النبي ﷺ الراية لأسامة على صغر سنه، فكان من
 آخر ما أوصى به إمضاء بعثته.

وكان ينشط رفقة أقرانه بمسجد البلدة الصغيرة التي كانوا يقطنونها، وقد عانى الكثير من تزمّت
 الشيوخ الذين كانوا جد متعصبين للطرق الصوفية والخرافات الشركية المتجذرة هناك^①..
 والمتمسكين بالبدع التي ورثوها من أسلافهم، فخاضوا معركة بيان مع من كان شعارهم: ﴿إِنَّا
 وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: من الآية 23]، حتى عاداه جل أولئك

① - ليعلم القارئ الكريم أن تلك الجهة (أقصد الغرب الجزائري) كان يعج بالمظاهر الشركية من تعظيم الأولياء والتقرب إليهم بما لا
 يجوز التقرب به إلا لله، كالذبح والنذر...

المتعصبون لبدعهم التي كانوا يجنون منها المنافع الدنيوية الدنيئة، كالولائم وبعض الإتاوات التي تُؤخذ من بعض النوايا المغفلين، بحجة الولي الصالح الفلاني أو العلاني، وإحياء الوعدة الفلانية، وما أكثر وعداتهم وأعيادهم الشركية، وكان حينها لا يزال طالبا بالثانوية.

كما عرف بمستواه الدراسي العالي بين أقرانه، ونال شهادة البكالوريا سنة 1984م فرع رياضيات بتقدير جيد.

فقد كان الشيخ بالرغم من تكوينه التقني إلا أنه يميل كثيرا للعلوم الشرعية، ولعل الله أراد به خيرا فـ((من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين)) كما ثبت عن نبينا عليه الصلاة والسلام، وشاء الله أن تفتح جامعة العلوم الإسلامية (جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة) في نفس السنة التي تحصل فيها الشيخ على شهادة البكالوريا، فالتحق بها بعد حصوله على الشهادة بتقدير جيد.

وهكذا شاء الله أن تعود لهذه المدينة وجهتها التي طالما عُرِفَتْ بها في ماضي الأزمان، حيث كانت قبلة العلماء والصالحين والمصلحين، بعد أن طمس غربان الشر وجهها المشرق، فأظلم ليلها بعد أن كان مقمرا، وأفل نجمها بعد أن كان نيرا، فنكسوا رايات العلم والعلماء فيها، ورفعوا مكانها رايات الفساد والتغريب، ولافتات الهدم والتخريب، كل هذا حصل على حين غفلة من أهلها وخلو الساحة من شعاره ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: 38]

فاستقبلت هذه المدينة خيرة أبناء الجزائر الذين طالما انتظروا فتح معاهد للعلوم الشرعية، وكان من بينهم ضيف عزيز نزل إليها وأنعم به من ضيف.. إنه الشيخ مصعب رحمه الله، الذي سيكون له فيما بعد شأن في هذه المدينة.

فقد علّمت قسنطينة فيما بعد أيّ فتى نزل أرضها ووطئ ثراها. وعلم أهلها فيها أيّ رجل هو ذاك البطل الهمام، والليث المقدام، الذي أكرم الله تلك البقعة به وأنارها بقدميه..

كيف لا وهو الذي عمل على فتح القلوب والولوج إليها وسبر أغوارها! ثم أطرها وتحريضها على البذل لهذا الدين واللحاق بركب الصالحين.

كيف لا، وهو الذي عرفت المنابر صوتاً لحقاق الحقّ وإزهاق الباطل، فكان أثره كالمهل يغلي في صدور أعداء الله، ونصال كلماته التي فلقت هيلماهم كانت بما في طياتها من هدىً ونور، مشعلاً يضيء الدربَ للسالكين، وسراجاً منيراً للمهتدين..

وبعد بدء السنة الدراسية مباشرة، كان الشيخ يقيم كبقية الطلبة في الإقامات الجامعية، إلا أن حبه للتعليم والتعليم، ومعرفة أهل الخير والصالح في كل مكان يحل فيه، أبى على نفسه الانغلاق داخل الإقامات الجامعية وعدم مشاركة المسلمين همومهم كما هو حال كثير من الطلبة الجامعيين، فبدأ يقوم بجولات عبر مساجد المدينة، وأراد أن يربط علاقات مع بعض الدعاة، وتمّ له ذلك.

وفي سنة 1986 ميلادية، تم فتح مسجد في أحد أحياء المدينة وهو: (حي الزيادة) واتصل الإخوة المشرفون على المسجد بالشيخ مصعب وعرضوا عليه أن يكون إمام وخطيب المسجد (مسجد الأنصار) فلبى الدعوة وقبل العرض ومن هناك بدأ نجم الشيخ يلمع، وصيته ينتشر ويسطع.. فبدأ ينشر العلم والفضيلة بين الناس، وكان حبه للعلم ونشره يفوق كل تصور.

ومن شدة حرصه على نشر العلم الشرعي، فقد وضع الشيخ برنامجاً لنفسه ينوء بالعصبة من الرجال، فصار يقدم حلقات علمية في أكثر من مسجد على مدار الأسبوع (في أحكام التلاوة، وشرح كتاب العقيدة الطحاوية، وشرح متن ابن عاشر في الفقه المالكي، وشرح أحد كتب أصول الفقه) بالإضافة إلى دروس عامة يلقيها كل اثنين وخميس، وقد كان له الفضل في نشر رواية (قالون) بين من يهتم بعلم القراءات، كل هذا إلى جانب البرنامج الدراسي الذي كان يتلقاه في الجامعة الإسلامية، فكان حقا آية في شدة الحرص والتضحية براحته ووقته في سبيل نشر العلم الشرعي، والذي شجعه على هذا هو التفاف الشباب حوله وشدة حماسهم للتعلم بين يديه، فقد وجد شباباً وشيوخاً تتعلق نفوسهم بكل من كان شعاره: ﴿تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: من الآية 151]

فكنت أرى كيف أن الناس يتحلقون حول الشيخ الحلقة إثر الحلقة، ويتزاحمون بالمناكب، وكان فيهم الشيوخ والشبان جثوا على ركبهم وكل منهم أخذ قلمه بيده، و يلتقط ما يقوله الشيخ كما تلتقط الدرر، ويحفظون دروسه في دفاترهم كما تحفظ الأعلاق النفيسة.

وهذا عكس البلدة التي كان يسكنها.. أين كان شيوخ تلك البلدة يعادون كل من ينادي بتصفية الدين مما علق به من شوائب البدعة.. وصدق من قال:

ما في المقام لذي عقلٍ وذي أدبٍ	من راحة فدح الأوطان فاغترِب
سافر تجد عوضاً عمّن تفارقه	وانصب فإنّ لذيذ العيش في النصب
إني رأيتُ وقوفَ الماء يفسدهُ	إن سَاحَ طابَ وإن لم يُجِرْ لم يَطِب
والأسد لولا فراق الأرض ما افترت	والسهم لولا فراق القوس لم يصب
والشمس لو وقفت في الفلك دائمةً	ملكها الناس من عجمٍ ومن عرب
والتبرك لترُب مُلقًى في أمّاكنه	والعود في أرضه نوع من الحطب
فإن تغرب هذا عزّ مطلبه	وإن تغرب ذاك عزّ كالذهب

وهكذا مضت السنوات والشيخ يتقلب بين مساجد المدينة واعظا ومعلما وناصحا أмина، وصادعا بالحق لا تأخذه في الله لومة لائم.

ولقد كان رحمه الله شعلة من النشاط والإخلاص وحسن الخلق والغيرة والحمية الإسلامية، وأذكر له قصة حدثت سنة 1987م، حيث أن إحدى المدرّسات بإحدى المدارس جاءت بدعوة صلعاء سافرة، وفرضت على الإناث الجلوس بجانب الذكور في حصصها، ووصل الخبر إلى الشيخ عن طريق بعض التلاميذ الذين يدرسون عند هذه المدرّسة التي تريد أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا. فطارت نخوة الشيخ وجعل درس الجمعة عن هذه الظاهرة المنكرة التي لا يجوز السكوت عليها بحال، وقام خطيبا في الناس كأنه منذر جيش فقال مصرحا ومنوها: تعلمون أنه ليس لي بنت أو أخت تدرس هنا..؟!، ولكنني لست ديوثا أرضى أن يتربى أبناؤنا وبناتنا على أيدي دعاة الفساد والتغريب تحت مختلف التسميات والتعليلات، ورفع نداء التحدي على هؤلاء المفسدين الذين يحبون أن تشيع الفاحشة بين أبناء المسلمين، وقاد بنفسه مسيرة في اليوم الموالي نحو هذه المتوسطة، وتبعته في ذلك جموع المصلين وبعض سكان الحي، ولما وصلوا إلى المدرسة ورأى المدير هذا الجمع الغفير، ولما استفسر عن سبب حضورهم وعرف السبب، أخذ يتفاهم مع الشيخ ويهدئ من الوضع، واحتج بأنه لا يعلم بتصرف هذه المدرّسة، ونفس الشيء قامت به هذه المدرّسة وأرادت أن تبرر فعلها هذا

بأنه يندرج ضمن البرنامج البيداغوجي، وأخذت تعلل وتتعلق بكل قشة وهشة، ثم طلبت الصفح من أولياء التلاميذ...

وهكذا كانت وقفة واحدة كافية لدفع شر مستطير كان سيحل بأبناء وبنات المسلمين على أيدي غير أمينة.. فأصبح كل من تسول له نفسه فرض بعض التعليمات على أبناء المسلمين، يفكر أكثر من ألف مرة في عواقب عمله... فردّ الله النار عن وجه الشيخ كما ذبّ عن عرض المسلمات والمسلمين.. آمين آمين

وهذا - لعمر الله - هو ما ينقص المسلمين اليوم... ينقصهم أناس يقودونهم ويوجهونهم نحو الخير ولا تأخذهم في الله لومة لائم، كما فعل الشيخ رحمه الله، وبعد هذه الحادثة التي تركت بصماتها الهامة في تلك الناحية.. تربع الشيخ (على صغر سنه، لم يتجاوز يومها سن 22 سنة) على قلوب سكان الحي، وأصبح جل الناس يقصدونه لحل مشاكلهم والاستفسار عن مسائل دينهم، لا شيء إلا لأنهم تيقنوا صدق انتماء الشيخ لدينه وغيرته على أمته.. فلقد كان رحمه الله يحمل بين جنبيه قلبا عامرا بالاهتمام بأحوال المسلمين وقضاياهم..

وهذا ما ينقص الدعاة اليوم.. وهو الاحتكاك بعوام الناس والنظر في انشغالاتهم ومشاركتهم همومهم، وليس الوقت وقت ((عليك بخاصة نفسك))، و((وليسعك بيتك وابك على خطيئتكم))، و((كونوا أحلاس بيوتكم)) كما يدندن جل من تصدروا للدعوة إلا من رحم ربي، وكأنهم لم يقرؤوا سيرة نبي الله يوسف عليه السلام حين قال له صاحبه في السجن ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: من الآية 36]، فقد كان قبل ذلك يعرض خدماته على مجتمعه الذي كان يعيش فيه، وهذا هو دأب الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين.

وبعد تخرج الشيخ رحمه الله من الجامعة الإسلامية ونيله شهادة الليسانس في العلوم الشرعية تخصص أصول الفقه، اشتغل مدرسا في إحدى الثانويات بقسنطينة (ثانوية الإخوة بسكري) وكان يدرس الأدب العربي، وقد نفع الله به في تلك الثانوية أيما نفع، إذ كان سببا بعد الله سبحانه في التزام العديد من الأساتذة والطلبة، وقد حدثني بعض الطلبة الذين درسوا عنده في الثانوية، أن غيرهم من الطلبة

كانوا يستأذنون الإدارة والشيخ لحضور دروسه، وما هذا إلا لتعلقهم به.
فكان لهم رحمه الله كالشعلة المضيئة... يمدّهم بصفوة تجاربه وزبدة معارفه.

وهكذا فاحت مدينة قسنطينة بفضلها، وتشهد معاهدها ومساجدها باجتهاده وسعيه.. فجزاه الله
عن أهلها خير الجزاء ولتكن منهم - بارك الله فيهم - دعوة للشيخ بظهر الغيب و﴿هَلْ جَزَاءُ
الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: 60].

وبعد أن اشتغل في التدريس لمدة عام، حصل للشيخ بعض المال، وهناك يمم وجهه شطر بلاد الشام
ليتم تحصيله العلمي، فغادر الجزائر وحل بسوريا لطلب العلم والتحضير لنيل الشهادات العليا.

وغاب الشيخ مدة سنة كاملة ونيف.. بعدها جاءت حرب العراق الأولى سنة 1991م، وعاد الشيخ
إلى الجزائر دون أن يتم تعليمه، وهناك بدأ يفكر في أمر الإعداد للجهاد، والتحضير للتدريب
العسكري، فكوّن مجموعة من شباب المساجد والتفوا حوله بحكم ألمعيته في أوساطهم وثقتهم به
واطمئنأنهم إليه... وكلف بهم أحد الإخوة ممن كانوا يتقنون رياضة القتال المتلاحم لتدريبهم بدنيا
تحسبا لخوض الجهاد الذي بدأت ملامحه تلوح في أفق ربوع الجزائر الأبية، نظرا لتراكم وتسارع
الأحداث العالمية والإقليمية والمحلية، فقد وطئت أقدام الصليبيين المجرمين أرض الحرمين، وازداد
بطش اليهود المتصهينين في أرض أولى القبلتين.. وبدا واضحا تعنت السلطة المستسلطة في الجزائر تجاه
مَنْ يطالبون بالحل الإسلامي من أنصار الجبهة الإسلامية للإنقاذ، وغيرها من الأحداث التي
تسارعت وتيرتها آنذاك... وهكذا سطر الشيخ رحمه الله أول خطوة عملية للأمام على طريق الجهاد
المبارك..

ثم جاء إضراب الجبهة الإسلامية (25 ماي 1991م)، وتم تسريح بعض العمال الذين شاركوا في
الإضراب من مناصب شغلهم، وبدأ الوضع يتوتر أكثر فأكثر، وهنا وجد شيخنا الفاضل ضالته في
التقرب أكثر من شريحة عريضة من أبناء الشعب وهي شريحة العمال، ففتح مكتبا بوسط المدينة لينظر
في انشغالات العمال المطرودين، وهذا بالتعاون مع بعض الإخوة الدعاة من بينهم الشيخ سليمان
حجاج رحمه الله (قتل في جبل بني صبيح سنة 1995م)، وبالتنسيق مع (النقابة الإسلامية للعمل)

التي كان يرأسها الشيخ عمر علمي رحمه الله (قتل في بداية الجهاد) وقد كان للشيخ عمر علمي تقبله الله في الشهداء أثره الطيب على الشيخ مصعب (وهذا بتصريح الشيخ مصعب نفسه).

ومنذ ذلك الوقت وانطلاقاً من هذا المكتب قويت روابط الشيخ الأخوية والإيمانية بشريحة عريضة من المسلمين، طالما ضيعها الدعاة - مع أن الاهتمام بهموم ومشاكل العمال من صميم الدعوة الإسلامية - واستأثر بها غيرهم، وهي شريحة العمال، فبدأ يجمع الأموال عبر المساجد ومن الميسورين ويدفعهم للعمال المسرحين، وأذكر أنه كان في تلك الفترة لا يعرف الراحة، فهو كثير الحركة ما بين مؤسسة وتجمع عمالي وشركة، ينشغل لانشغالهم ويهتم بهمومهم وأحوالهم، حتى إذا رآه من لا يعرفه يقول هذا عريق في النضال النقابي،...

وفي هذه الفترة بالذات وضعت مصالحي الاستخبارات تحت المجهر، وبعثوا إليه أحد سحرة فرعون (صحافي) ليجري معه حواراً حول الإضراب والعمال و...و...و... فأبى الشيخ لعلمه بهوية الشخص الذي لبس لباس الصحافة مكراً وخديعة، (لأنه يعلم أن الدولة إذا تحولت من النظام الديكتاتوري إلى النظام الديمقراطي، فإن رجال الاستخبارات يتفرقون على مختلف مناحي الحياة وخاصة الصحافة، وهذا ما أكدته عدد من الدعاة في تلك الفترة ونبهوا عليه، ومن بينهم الشيخ علي بلحاج حفظه الله).

وفي شهر جوان 1991م حدثت الانتفاضة بعد أحداث الجبهة الإسلامية (واعتقال شيوخها وقاداتها) وبدأت الاعتقالات تطال عدداً كبيراً من الدعاة الصادعين بالحق، ولكن الشيخ بفطرته السليمة وتكوينه الفكري السوي الذي لم تشوّهه مصالحي موهومة ومزعومة، اختفى عن الأنظار وكان يدرك جيداً أن ذلك غير قادم في مروءة الشخص بل هو من تمام مروءته، وهذا من العلم الذي تركه لنا أنبياء الله صلوات ربي وسلامه عليهم، على عكس الذين كانوا يستحيون من التخفي ويتعللون بأن ذلك من أخلاق المجرمين والمنهزمين، وشتان شتان ما بين الفريقين..

ومرت بضعة شهور واستقر الوضع نوعاً ما وسكنت الساحة مما فيها وعادت المياه - على ما كان يبدو - إلى مجاريها، وبدأ التحضير للانتخابات البرلمانية لشهر ديسمبر 1991م، وعاود الشيخ نشاطه

ولكن بحذر كبير، لأنه في هذه المرة بدأ يعد للجهاد، من شراء الأسلحة وتكوين الخلايا الجهادية وربط الشبكات بين الولايات (لأنه في فترة التنسيق مع النقابة الإسلامية للعمل، تعرف على عدد كبير من الدعاة المخلصين عبر الوطن، والذين فيما بعد انطلق معهم في الجهاد).

وبعد إجراء انتخابات 26 ديسمبر 1991م نالت الجبهة الإسلامية أغلبية المقاعد في الدور الأول، وبات وشيكا أن تسيطر على البرلمان بأغلبية مطلقة، هنا بان الوجه الحقيقي للنظام الديكتاتوري وارتد ثانية عن مبادئه الديمقراطية التي طالما طنطن ودندن عليها، وحدث انقلاب 11 جانفي 1992م وأقيل الشاذلي بن جديد (رئيس الجمهورية آنذاك تحت إكراه السلطة الفعلية، وهم جنرالات العسكر ومن سار حذوهم من دعاة العلمانية، ممن يعرفون بتسمية "حزب فرنسا")

وجاءوا بالرئيس الهالك محمد بوضياف صاحب مقولة (أنا مستعد لاعتقال 3 ملايين جزائري - عدد الذين صوتوا لصالح الجبهة الإسلامية - لتحيل الجزائر ديمقراطية)... ليقوم بالمهمة القذرة، وهي ملء المعتقلات الصحراوية بكل من يشتم فيه رائحة الإسلام الأصيل، وبدأت الاعتقالات العشوائية تطل المسلمين هنا وهناك.. وصار زبانية الطواغيت يلتقطون الشباب الملتزم سرا وجهرا..، وملئت المعتقلات والمحتشدات بالدعاة والأئمة ولم يبق إلا أشباه الدعاة الذين يتبعون كل ناعق إلا من رحم ربي.

ومن هنا بدأت الانطلاقة الفعلية والميدانية للجهاد في قسنطينة، وفي هذه الفترة بايع الشيخ مصعب جماعة الشيخ منصوري ملياني^① رحمه الله، وكان الشيخ الملياني أميرا وطنيا والشيخ أبو سيف رحمه الله (من ولاية برج بوعريريج أمير منطقة الشرق).

① - من خيرة رجال الجزائر، بدأ بالجهاد ضد النظام الجزائري مطلع سنوات الثمانينات رفقة الشيخ مصطفى بو يعلي رحمه الله، ثم اعتقل وحكم عليه بالإعدام، إلا أن تغير سياسة النظام الجزائري بعد انتفاضة 5 أكتوبر التاريخية وإقرار التعددية الحزبية، وبالضغط من بعض رموز التيار الإسلامي وقادته، أطلق النظام سراحه مع بقية إخوانه، ثم مال بث أن عاود الكرة وأنشأ جماعة جهادية سنة 1991م، ثم أُلقي عليه القبض وحكم عليه بالإعدام مرة أخرى، ونفذ فيه الحكم سنة 1993م في سجن لامبيز بباتنة، فرحمه الله رحمة واسعة

وبعد تكوين المجموعات الجهادية، قام أربعة (04) إخوة^① بتنفيذ أول عملية قتالية في قسنطينة، وهي الهجوم على قسم الشرطة الكائن بمحطة المسافرين الغربية بحي بوالصوف، ورغم فشل العملية إلا أنها كسرت حاجز الترقب، وبعدها انطلقت سلسلة من الاغتيالات المتقنة والكمائن المحكمة، ففي ظرف وجيز قتل الإخوة أربعة (04) ضباط شرطة وضابط في المخابرات، عرفوا كلهم بعدائهم الشديد للشباب الملتزم بدينه، وكذا تدينسهم للمساجد حين مداهمتها لاعتقال الطيبين الطاهرين، (كلهم قام الأخ عز الدين شوالب باغتيالهم إلا واحدا اغتاله الأخ بوزفار زهير من مسجد الأنصار بحي الزيادة نفذ فيه حكم الإعدام مع صاحبه شوالب في نهاية 1993م).

ثم بالتنسيق مع الشيخ أبي سيف رحمه الله تم الهجوم على ثكنة عسكرية بجبل المعاضيد بولاية المسيلة، وغنم الإخوة 4 رشاشات وكمية هامة من الذخيرة (كان هذا في مطلع صيف 1992م).

وبعد حصول الإخوة على الرشاشات والذخيرة، بدؤوا يخططون للكمائن وانتقلوا من مرحلة الاغتيالات إلى الكمائن، فنصبوا كمينا لدورية من الشرطة متكونة من سيارتين طويوتا بحي الزيادة (في صيف 1992م)، ولأول مرة يشارك الإخوة الأفغان^② في العمليات الميدانية، وفي هذه الفترة زاد عدد الإخوة وبدؤوا ينقسمون إلى مجموعات صغيرة.

هذا من الناحية الميدانية في الجانب القتالي، أما في الجانب التنظيمي والتنظيمي، فقد كان الشيخ مصعب رحمه الله يربط الاتصالات بمختلف الأماكن والجهات، وكان كثير الاتصال بالإخوة أعضاء المكاتب التنفيذية للجبهة بالولايات الشرقية يحثهم على الانضمام للمجاهدين ومد يد العون لهم، وأن هذا هو واجبهم الشرعي، وكان يريد أن يستفيد من مقدرات وكوادر الجبهة الإسلامية

① - هم: عز الدين شوالب المكنى محمد، (فارس قسنطينة بلا منازع وبطل حلبتها بلا مدافع، حكم عليه بالإعدام ونفذ فيه الحكم سنة 93م)، ميمح رشيد المكنى المثنى قتل في حي الدقبسي سنة 95 بعد أن فر من سجن لامبيز، بوالحليب الزبير المكنى الطاهر قتل بالقرب من مدينة الميلية وكان وقتها أمير كتبية، وبودماغ إلياس المكنى أبو تراب إدريس (وهو الوحيد الذي لا يزال حيا من هذه المجموعة)، وكلهم من حي الشالي من تربى على يد الشيخ أبي ريجانة فريد عشي رحمه الله.

② - منهم توفيق صحراوي المكنى خالد (قتل في حي بن تليس في نوفمبر 1994)، وسليم قايم المكنى بلال (قتل بديدوش مراد في ديسمبر 1994) وحسان مسعي (قتل في زيغود يوسف في سبتمبر 1994) وكلهم من حي الشالي من مسجد عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، ومن تربوا على يد الشيخ أبي ريجانة فريد عشي رحمهم الله جميعا)

للإنقاذ ليحولها لمصالح الجهاد.

وكان من الأئمة الصادقين الذين رفعوا راية الجهاد صافية منذ الانطلاقة الأولى بالإضافة إلى الشيخ مصعب، الشيخ أبي ریحانة فريد عشي^① الذي كان له بالغ الأثر في مسيرة الجهاد في قسنطينة، والشيخ أبوبكر خماسي، والشيخ سليمان حجاج، وغيرهم رحم الله جميع القتلى.

وفي صائفة 1992 قُتل الشيخ أبو سيف أمير منطقة الشرق، واستخلفه الشيخ مصعب رحمه الله على إمارة الشرق تحت راية الجماعة.

* * *

وأثناء مسيرة الشيخ الأولى في الجهاد، وكثرة اتصالاته بمختلف الأطراف، بان له أن أمر هذا النظام غير ظاهر الملامح والتوصيف الشرعي عند كثير من الشباب وكذا بعض الدعاة، فلم يتبين لهم كفره آنذاك، بل كانوا يعدونه ظالما وكفى، ووجد أن هذه عقبة كؤود يجب تجاوزها، حتى تكون راية الجهاد واضحة المعالم منذ الانطلاقة الأولى، فالشيخ بنظرته الثاقبة وعقله السديد وما يقتضيه واجب

① - أبو ریحانة فريد عشي.. من الثلة المؤمنة الأولى التي أعلنت الجهاد في ولاية قسنطينة، مع بعض إخوانه من أئمة المساجد، رحم الله الجميع.

كان إمام وخطيب مسجد عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها بحي الصنوبر (الشالي)، غرس في حيّه هذا الذي كان يقطنه نبتة طيبة، فأتت أكلها كل حين بإذن ربها، فأنبئت شبابا هم نماذج للصبر والعطاء.. مضوا قدما في طريق الجهاد، رغم ما عانوه من صنوف البلاء.. كلما سقط الأول رفع الثاني اللواء.. ولسان حالهم يردد صوتا عاليا في السماء: {وَكَايْنُ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} (آل عمران: 146).

كان أمير ولاية قسنطينة حتى مطلع سنة 1995م ثم انتقل إلى منطقة الوسط - مكان تواجد إمارة الجماعة حينها - وبقي هناك إلى أن جاءت الفتنة التي عصفت بالجماعة، وانتهجت إمارتها نهج الخوارج، فوقف الشيخ منها موقف الواثق من ربه، فنصح الإمارة وبين لهم مخالفاتهم الشرعية، وجاهد في النصيحة... فما كان من أولئك الخوارج إلا أن أسكتوا هذا الصوت الناطق بالحق، فقتلوه، فرحمه الله رحمة واسعة.

وقد كان للشيخ أبي ریحانة مساهمة جيدة أيام الجهاد الأفغاني وله علاقة جيدة مع الشيخ عبد الله عزام رحمه الله، حيث كان هو الذي يتولى تجنيد الشباب التواق إلى ساحات الجهاد والاستشهاد ويرسلهم إلى أفغانستان... وحياء الشيخ مليئة بالعطاء لدين الله، هذا ما شهد به كل من عايشوه، فجزاه الله عن المسلمين خير الجزاء.

البيان قبل هذا وذلك.. أراد أن يرسخ العقيدة الجهادية في قلوب الشباب ويبني البنيان على أساس متين وركن ركين.. ولئلا يفتر في عزائم الشباب كثرة العناء وطول الطريق فيساوموا على عقيدتهم ويصبحوا مثلاً حياً لتلك التي ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ [النحل: من الآية 92] وهي حالة مرضية أوقعت الكثير من العاملين في حقل الدعوة إلى الله على فراش الموت.. نسأل الله العافية وحسن الختام..

فبدأ في كتابة بحث شرعي حول حكم هذا النظام المرتد وأفراده، واستمر في البحث والتأليف قرابة الثلاثة أشهر، أذكر حتى يوم 23 سبتمبر 1992م..

والشيخ رحمه الله ممن وقعوا على البيان الموسوم بـ: (بيان أمراء الجهاد بالجزائر) وهو موجود في: (منبر التوحيد والجهاد) جزا الله القائمين عليه خير الجزاء..

ثم توالى بعض الأحداث التي لها علاقة مباشرة بالشيخ، أهمها:

عقد لقاء وطني حوالي شهر نوفمبر 1992م في مدينة الجلفة حضره بعض القادة عن جماعة الملياني تحت إمرة الشيخ أحمد الود رحمه الله (من القادة البارزين في الجهاد الجزائري وهو من منطقة الجنوب، أصبح أميراً للجماعة بعد اعتقال الشيخ الملياني رحمه الله)، وكذا بعض القادة من جماعة عبد الحق لعيابدة، فالتقى جمع غفير من قادة الجهاد من مختلف المناطق الجزائرية، فكان ممن حضر اللقاء: الشيخ مصعب ومعه بعض مساعديه من قسنطينة، الشيخ عبد الناصر علمي وأخوه الشيخ عمر علمي، وبعض الإخوة من الوسط منهم الأخ منير وآخرون لا أذكر أسماءهم جيداً، وفي هذا اللقاء تم الاتفاق على تسمية (الجماعة الإسلامية المسلحة)، ووضع المنهج الذي ستسير عليه الجماعة وضوابط تعاملها مع باقي الجماعات الجهادية التي كانت تنشط في الجزائر، كما تم تأمير الأخ عبد الحق لعيابدة على رأس الجماعة، وبعدها مباشرة صدر أول بيان باسم الجماعة الإسلامية المسلحة وتبنوا فيه جل العمليات الجهادية التي حدثت في مختلف مناطق الوطن.

وأود أخي (الكريم) أن أشير باختصار إلى أمر بالغ الأهمية وهو: أن الجهاد في الجزائر قام على عاتق رجال من بينهم ثلة لا بأس بها من طلبة العلم البارزين في الساحة آنذاك.. بخلاف ما يروج له على

أن الجهاد تأسس وقام سوقه على أيدي جهال أغمار أعرار قتلك - لعمر الله - إفك افتراه المغرضون وأعانهم عليه قوم آخرون...!! طبعاً كل هذا لأمر ما..!! واللييب تكفيه هذه الإشارة (!) عن طول العبارة ويغنيه التلميح عن التصريح..

أعود.. قلت: وبعد ترتيب الشأن الداخلي، قرر قادة الجماعة عقد لقاء في المغرب الأقصى مع بعض الإخوة من الخارج، ولكن المخابرات الجزائرية كانت على علم بعقد اللقاء لأسباب ليس هذا مكان ذكرها وهي معلومة عند بعض الإخوة، واكتشف أمر المجموعة التي كان من بينها الشيخ مصعب أمير الشرق والأخ سليم قايم (بلال الأفغاني من القادة الميدانيين في قسنطينة) والشيخ أبو عبد الغفار رضوان عشير¹ أمير ولاية جيجل آنذاك وكذا عبد الحق لعيادة أمير الجماعة الإسلامية المسلحة، فداهمت المخابرات المغربية الفنادق التي نزل فيها الإخوة، وأسر كل الإخوة إلا الأخ بلال فر منهم ونجاه الله ودخل التراب الجزائري عن طريق شبكات التهريب، ثم نجا الله الشيخ مصعب والشيخ رضوان من يد زبانية الطاغوت المغربي ولم يبق في الاعتقال إلا عبد الحق لعيادة الذي سلمته السلطات المغربية للجزائر فيما بعد، بعد وساطة فرنسية ثم حكم عليه بالإعدام، فلبث في السجن 13 سنة ثم أطلق سراحه.

ثم عاد الشيخ ودخل الجزائر عن طريق شبكات التهريب، والتحق بقسنطينة مجدداً، لينظم منها وينسق لأموال الجهاد الذي خالط حبه شغاف قلبه.

وفي هذه الفترة، كانت بعض المجموعات الجهادية الناشطة بمنطقة الجنوب قد تعرضت لمضايقات وتشديد كبير من طرف المرتدين عقب تنفيذها لعمليات بطولية بتلك المنطقة²، فاستضافها الشيخ

① - من سكان مدينة الجزائر كان إمام وخطيب أحد مساجد العاصمة، وكان أستاذاً في التعليم، وهو من الإخوة الأوائل الذين رفعوا راية الجهاد في الجزائر، كان أمير ولاية جيجل (بالشرق الجزائري) ثم تولى إمارة منطقة الشرق بعد مقتل مصعب رحمه الله، وقتل في شهر فيفري 1995م في إغارة على ثكنة للدرك الوثني بدائرة بابور ولاية سطيف

② - منها عملية الهجوم على ثكنة للدرك الوثني بمدينة الأغواط، فتم بفضل الله الإجهاز على كل من فيها وغنم أسلحتهم، وكان قائد هذه العملية البطولية، هو الأخ أبو طلحة الجنوبي رحمه الله، مع التذكير أن المجاهدين في هذه الغزوة كانوا يمتلكون سلاحاً رشاشاً واحداً، وجل الإخوة الآخرين مجهزين بالسكاكين فقط.

مصعب وهياً لهم المآوي والمضافات، وقد كان لقدومهم هذا عظيم الخير والمنفعة، فهؤلاء الضيوف الكرام (المهاجرين) هم من خيرة شباب الجنوب وأكثرهم تجربة وخبرة بغمار حروب العصابات وتكتيكاتها، خاصة وأن جلهم قد شارك في الجهاد الأفغاني ضد المحتل الشيوعي الروسي، ومنهم: الأخ القائد أبو طلحة الجنوبي رحمه الله¹، وكذا الأخ القائد خالد أبو العباس حفظه الله²، وجمع غفير من خيرة الشباب والجنود الميامين.

فاستغل الشيخ مصعب وجود هذه الكوكبة من المجاهدين المتمرسين معه، فراح يخطط لعمليات عسكرية، وتم بحمد الله تنفيذ عملية بطولية ضد قافلة لقوات التدخل السريع، وجرت فصول هذه العملية على بعد أمتار قليلة عن إحدى أكبر ثكنات قوات التدخل السريع (وهي الثكنة الكائنة بحي شعبة الرصاص بقسنطينة)، فحدثت فيهم مقتلة عظيمة، بفضل الله وتوفيقه ثم بتضافر جهود أبناء الجنوب المخلصين مع إخوانهم الأنصار من أبناء قسنطينة.

* * *

وفي حوالي شهر أكتوبر قاد الشيخ عملية عسكرية ناجحة³ بمعية بعض إخوانه، وكانت هذه العملية

① - أبو طلحة الجنوبي، اسمه: حليس محمد، من سكان مدينة الأغواط بالجنوب الجزائري، هاجر مبكراً إلى أرض خراسان ليشارك إخوانه المجاهدين فريضة الجهاد، فكانت له هناك صولات وجولات ضد الشيوعيين الروس وعملائهم المرتدين، وبعد انطلاقة الجهاد في الجزائر كان من الأوائل الذين رفعوا رايته، وقد كانت ملامح القيادة ظاهرة عليه، لذا فقد كان أميراً على المجاهدين في مدينة الأغواط، ثم أميراً على ولاية عنابة، ثم أميراً على المنطقة الثانية (وهي تضم أربع ولايات، هي: تيزي وزو، وبجاية والبويرة وبومرداس)، وفي شهر أوت من سنة 1995 م صار أميراً على المنطقة السادسة (وهي تضم خمس ولايات، هي: جيجل، قسنطينة، سطيف، سكيكدة، ميلة، وقلمة)، وقُتل رحمه الله في إحدى الغزوات التي نفذها المجاهدون على المرتدين بمنطقة جبال الأوراس بباتنة وذلك في شهر أوت من سنة 1998 م، فرحمه الله رحمة واسعة.

② - خالد أبو العباس، اسمه: مختار بن محمد بلمختار، من سكان مدينة غرداية بالجنوب الجزائري، هو الأسد الهمام والبطل المقدم، الذي تعرفه صحراء الجزائر ومالي وموريتانيا، هاجر إلى أرض خراسان، مصنع الأبطال ومعدن الرجال، فشارك إخوانه المجاهدين جهادهم وهو لم يبلغ العشرين من عمره، وهناك فقد إحدى حبيبتيه (عينه)، ولما انطلق الجهاد المبارك في الجزائر كان من الفرسان الأوائل الذين حملوا لواءه... ولهذا الأخ القائد ترجمة كاملة في العدد السابع من مجلة "الجماعة" التي كانت تصدرها الجماعة السلفية للدعوة والقتال، وهذا ضمن حوار أجرته معه تلك المجلة، فليراجع هناك، لمن أراد أن يعرف الكثير عن هذا القائد.

③ - وملخص هذه العملية أن أحد الإخوة (هو الأخ سفيان رحمه الله تعالى وكان ضابطاً برتبة ملازم) اتصل بالإخوة لما كان ضابطاً

نقلة نوعية للجهاد في قسنطينة، فبعدها بدأت الكمائن الكبيرة ولأول مرة يمتلك الإخوة السلاح الآلي بهذه الكمية، فلم يكن لدى المجاهدين في قسنطينة قبل هذه العملية إلا رشاشين كلاشينكوف وثلاثة رشاشات من نوع ماط 49.

وبعد هذه العملية تفرغ الشيخ مصعب للاتصالات بمختلف السرايا والكتائب التابعة للجماعة في كل من قسنطينة سكيكدة وجيجل، فكان يوزع السلاح على مختلف السرايا، ولما دخل جيجل وبعد لقائه مع الشيخ رضوان عشير رحمه الله وكذا أعيان ولاية جيجل، قرر بعدها عقد لقاء مع قادة جيش الإنقاذ (منهم مدني مزراق، ومحمد شلي وغيرهم) في منطقة بومليح (بالقرب من مدينة الشقفة بجيجل)، وعقد اللقاء في جلستين الأولى في بداية ديسمبر 93 والثانية في 21 ديسمبر 93م، وقد

في ثكنة (شلغوم العيد - وهي مدينة تبعد عن قسنطينة بحوالي 50 كيلومتر) وعرض عليهم أن يقتحموا هذه الثكنة بعد أن يهيئ لهم الظروف المناسبة لنجاح العمل من داخل الثكنة، ولكن ولسبب ما أجل الإخوة هذه العملية، ثم اتصل بهم ثانية بعد أن حوّل إلى ثكنة عسكرية بمدينة الطاهير (بولاية جيجل)، وحينها عرض الأخ سفيان على الشيخ مصعب نفس العملية ثانية (ولكن هذه المرة في ثكنة الطاهير)، وقال لهم: إما أن تنفذوا هذه العملية وإلا سأتمرد وأهرب من الثكنة بسلاحي، فاستشار الشيخ من معه من الإخوة تحسبا لبعض المخاطر المحيطة بالعملية، إلا أن الأخ بلال رحمه الله أشار على الشيخ وأصر عليه بأن يقوموا بالعمل، ويتوكلوا على الله ويقضي الله ما يشاء في عباده. فكان هذا التحفيز من حسنات الأخ بلال رحمه الله ومن مناقبه في مسيرته الجهادية المليئة بالبطولات المشرفة (فرحمك الله يا بلال فقد كنت نعم المشير ونعم المعين).

فانطلقت المجموعة من قسنطينة نحو (جيجل) على متن سيارتين، وبعد وصول الإخوة (حوالي ثلاثة عشر مجاهدا) إلى عين المكان، وأعطيت إشارة بدء العمل، خرج إليهم الأخ سفيان، وكان يومها رئيس الحرس، وقام بإدخال الإخوة إلى الثكنة ثم بدأ في مناداة الحرس واحدا واحدا، وكلما جاء حارس قيده الإخوة وأخذوا سلاحه، حتى اكتمل عدد الحراس.

ثم ذهب الإخوة إلى مخازن السلاح فاستعصى على الإخوة فتحهم، ففتحوها إلا مخازن (البنادق نصف آلية)، فغنموا بفضل الله وتوفيقه 37 بندقية نصف آلية (سيمنوف) و 8 رشاشات كلاشينكوف ومسدس مكاروف وكمية كبيرة من الذخيرة حوالي 5000 طلقة. (وقتلوا ضابطا في المخابرات برتبة نقيب كان مشتهرا بعدائه للإسلام والمسلمين) ولم يقتلوا الجنود، لأن الإخوة يومها كانوا يتدرجون في تطبيق الأحكام، بحكم أن الجهاد حديث والجنود لازالوا لم يفهموا بعد ما معنى نصرتهم للطاغوت، حتى أنهم لم يتعرضوا للقائد تلك الثكنة بسوء، بسبب شفاعته الأخ سفيان فيه لالتزامه بدين الله وحسن سيرته مع الإخوة وعدم معاداته للمسلمين داخل الثكنة.

أما قصة الأخ سفيان: فكان كمؤمن آل فرعون (عام ونصف وهو يصلي خفية لأجل القيام بالعمل فكان محل ثقة مطلقة عند الطاغوت) وهذا ما سهل عليه القيام بمهمته هذه. وبعد هذه العملية كان الأخ سفيان في موعد مع الشهادة، فقد نالها مقبلا غير مدبر في إحدى الغزوات التي شارك فيها. فرحمك الله رحمة واسعة أيها الأخ الحبيب، فلا زالت جبال جيجل تتطهر بدمائك التي سالت عليها.

تمحور النقاش حول عدة نقاط أهمها: السعي للشمول المجاهدين تحت راية واحدة.

وانتهى اللقاء دون إحراز تقدم يذكر في إطار لمّ شمل المجاهدين تحت راية واحدة، بالرغم من هذا فقد قام الشيخ مصعب بإعطاء السلاح لعناصر جيش الإنقاذ، رغم المعارضة التي تلقاها من بعض الجنود، بل كان جوابه عليهم يومها:

هؤلاء إخواننا ولا بد علينا أن نتألفهم ماداموا يقاتلون الطاغوت، فمن الناس من تنفع معه الحجة والبيان ومنهم من لا ينقاد إلا بالتألف والإحسان.

فقد كان رحمه الله حريصا على جمع كلمة المسلمين تحت راية واحدة؛ ولطالما سعى لهذا الأمر، كما كان حريصا على مراجعة قادة الجيش الإسلامي للإنقاذ.

* * *

ومع نهاية سنة 1993 م ومطلع 1994 م بدأ الإخوة ينتشرون في الأرض، فاستقرت مجموعة من المجاهدين في جبال المليّة، كما انطلقت مجموعة أخرى واستقروا بجبال ولاية سكيكدة تحت إمارة الأخ بلال (سليم قايم) وكانت نَعَم المجموعة، ففي فترة وجيزة انتشروا عبر كامل جبال ولاية سكيكدة وشكلوا أربع (04) سرايا، وقاموا بعدة غزوات منها: غزوة ضد قافلة للجيش بمنطقة الشرايع ببلدية القل (سكيكدة)، فهلك في هذا الكمين سبعة وعشرون (27) عسكريا أغلبهم ضباط وغنم الإخوة سلاحهم، وقبلها بقليل كمين لدورية من الدرك (3 سيارات) بمنطقة الزرقة (بولاية سكيكدة)، فهلكوا عن آخرهم وغنم الإخوة سلاحهم ومتاعهم..

ومع دخول سنة 1994 م كان الشيخ رحمه الله على علم بالتحضير لعملية كبيرة، وهي التخطيط لفك أسر الإخوة المعتقلين بالسجن الرهيب (لامبيز) بباتنة، فقام بالتنسيق مع إخوة باتنة الذين أشرفوا على العملية (بغية تسهيل عبور المساجين المفرج عنهم، وتفريقهم عبر مختلف الكتائب)، وفي الخميس يوم 27 رمضان 1414 هـ الموافق لـ 10 مارس 1994 م، تمت العملية بنجاح كبير¹ بفضل

① - سجن لامبيز (باتنة) وهو أكبر سجن في الجزائر، وتعتبر عملية الهجوم على هذا السجن من أروع العمليات في الجزائر، وقد من

الله ثم بتضحية وإخلاص أسود الأوراس فنالوا بذلك شرف تلبية نداء المصطفى ﷺ: ((فكوا العاني)) فقدموا جهودا جبارة وحملوا أمانة تنوء بحملها الجبال، فبقيت تلك العملية المباركة شامة عز في جبين أولئك الرجال العظام فبارك الله فيهم وجزاهم خيرا عن كل سجين فك الله أسرهم..

وبعدها ركز الشيخ رحمه الله جهده للاتصال بمختلف الولايات الشرقية، لتوطيد العلاقة وتمهيدا للوحدة الشاملة بين مختلف الجماعات الجهادية العاملة في الميدان (الجماعة الإسلامية المسلحة، حركة الدولة الإسلامية، والجبهة الإسلامية للإنقاذ) والتي تمت في 13 ماي 1994م تحت راية الجماعة الإسلامية المسلحة بإمارة الشيخ أبي عبد الله أحمد رحمه الله، وسميت يومها "وحدة الاعتصام بالكتاب والسنة".

وبعد أن توحد جل المجاهدين في الجزائر تحت راية واحدة، ونجاح عملية سجن (لاميين)، ازداد عدد المجاهدين بأضعاف كثيرة (فر من السجن حوالي 936 مجاهدا)، كان لزاما على القيادة النظر في المستجدات الجديدة للساحة الجهادية، حينها بدأ الشيخ مصعب يسعى لعقد لقاء جهوي للولايات الشرقية لدراسة المستجدات ووضع برنامج عملي لسير المنطقة التي أصبحت كلها تحت إمارة واحدة، وفعلا تم عقد اللقاء بالقرب من منطقة برج الساباط بولاية قالم بالشرق الجزائري، وحضره كل أولئك الرجال الذين يستحقون وصف الرجال - كما نحسبهم -:

أبو أيمن مصعب رحمه الله أمير منطقة الشرق (إمام وخطيب مسجد الأنصار)

الشيخ السعيد لعبودي رحمه الله (خطيب مسجد الهجرة)

أبو عبد الغفار رضوان عشير رحمه الله أمير ولاية جيجل (إمام وخطيب مسجد السنة)

أبو ريمانة فريد عشي رحمه الله أمير قسنطينة (إمام وخطيب مسجد عائشة أم المؤمنين)

أبو الحارث سليمان حجاج رحمه الله أمير قالم والخروب (إمام وخطيب مسجد الرحمن)

الشيخ سعيد قاري (وهّابي نصر الدين) رحمه الله (عضو مجلس شورى المجاهدين العرب في أفغانستان)

أبو طلحة الجنوبي رحمه الله أمير ولاية عنابة

الشيخ لخضر قاواس، أمير ولاية أم البواقي.

والشيخ عبد الحميد رحمه الله أمير ولاية باتنة.

أبو فاطمة بلال (سليم قايم) رحمه الله أمير سكيكدة.

الأخ منير أمير العاصمة رحمه الله، وعدد كبير من الإخوة الأعيان لا داعي لذكرهم..

وخرج اللقاء بعدة توصيات ومقترحات سار وفقها الجهاد مسيرة مسددة مباركة، فمن الناحية الميدانية، كثرت الأعمال القتالية بشكل لافت، فأصبح لا يمر يوم واحد في قسنطينة مثلا إلا ويحدث فيه اغتيال أو كمين...، هذا في قسنطينة؛ ناهيك عن جيجل وسكيكدة وعنابة وباتنة، وغيرهم... وكان ذلك اللقاء التاريخي قمة عطاء الشيخ الدعوي الجهادي فجزاه الله عن الجهاد وأهله خير الجزاء..

وهكذا هبت رياح الخير على مدينة قسنطينة من جديد.. بالتقاء قائدين بارزين على ذراها وثرها (الشيخ مصعب مع الشيخ السعيد قاري¹) وبعد التخطيط والتنظير بدأ ظهور الأثر والتأثير...

¹ - الشيخ سعيد قاري، اسمه (وهاي نصر الدين) من ولاية بشار بالجنوب الجزائري، بدأ يخطط للجهاد سنة 1978م وشكل مجموعة قوامها حوالي 80 فردا، منهم عدد من الضباط العسكريين، ثم قام بجولة عبر القطر الجزائري ليدعو لفريضة الجهاد... ولكنه وجد أن مفهوم الجهاد وأحكامه غائبة تقريبا عند جل الدعاة آنذاك، وحينها عرف أن وقت الجهاد في الجزائر لم يحن بعد، فعزم على الإعداد...

فتوجه إلى بلاد الحرمين لطلب العلم الشرعي، ومكث هناك وقتا ليس بالقليل في التحصيل العلمي، وأثناء دراسته ببلاد الحرمين كان يتردد على جبال خراسان للجهاد، وبعد تخرجه استقر نهائيا في أفغانستان، مجاهدا وداعية إلى الله، فدخل الجبهات وشارك مع إخوانه في القتال، ثم صار قائدا وعضوا في مجلس الشورى عند الشيخ عبد الله عزام، وربط عدة علاقات أخوية مع عدد من رموز الجهاد وقادته، من أمثال الشيخ عبد الله عزام رحمه الله، وكذا حكيم الأمة، الشيخ أيمن الظواهري حفظه الله والشيخ أبي عبيدة البنشيري رحمه الله والشيخ أبي مصعب السوري فك الله أسرهم، وغيرهم الكثير...

ولما بدأت أحداث الجبهة الإسلامية للإنقاذ وتوتر الجو في الجزائر، رأى أن الوقت أصبح مناسباً لنزول الشباب من أفغانستان ودخولهم الجزائر، وهكذا فعل رحمه الله، ففتح بيتا للمجاهدين الجزائريين في بشاور وأمر عليهم الأخ القائد عبد الله بن مسعود رحمه الله - قتلته جلاوزة الطاغوت في سجن سر كاجي - وفي شهر نوفمبر 1991م دخل الشيخ إلى الجزائر في زيارة تفقدية لمعينة الوضع عن قرب ومشاورة الدعاة أصحاب الفكر الجهادي، وبعد أن أخذ صورة كاملة عن الوضع، رجع إلى بشاور، ومن هناك قرر بدء إرسال دفعات المجاهدين إلى الجزائر. وكان رحمه الله من الأوائل الذين دخلوا الجزائر، وبدأ العمل العسكري الميداني، وقام وخطط لعدة عمليات، وشاء الله أن يأسر بعد عملية الهجوم على قاعدة الأميرالية في فيفري 1992م (وهي قاعدة بحرية كبيرة) ثم من الله

ودخل الشيخان حيز العطاء من أبوابه الواسعة.. ونتج عن ذلك المخاض إنتاج سار بالجهاد خطوات نوعية إلى الأمام..

فبعد التقاء الشيخ مصعب بالشيخ سعيد قاري رحمهما الله، وجد كل منهما ضالته عند الآخر، فالشيخ سعيد كان هو مفتاح الخارج (فكل الشبكات في الخارج كانت مربوطة به، لأنه هو من أرسلهم من أفغانستان لدخول أوروبا حين كان أمير بيت المهاجرين في بشاور، حتى أن عمل الشيخ أبي مصعب السوري فك الله أسرهم في بريطانيا كان بتنسيق وطلب من الشيخ السعيد قاري...

فلقد انتفع الشيخ مصعب من الشيخ السعيد أيما نفع، خاصة مع ما كان يميز الشيخ السعيد من نظراته العالمية للجهاد وربط كل القادة عبر العالم بعضهم ببعض للتعارف والتشاور والتناصح، وأما الشيخ السعيد فقد وجد أن الشيخ مصعب هو أرض خصبة لمثل هذه الأفكار النيرة ووجد عنده بُعد النظر ووضوح الأفكار فلقد كان رحمه الله ذا بصيرة نافذة وهمة متقدمة..

فربطاً شبكة اتصالات مع بعض الإخوة في الخارج، ومن هناك انطلق الشيخ السعيد مع الشيخ مصعب في إحياء الشبكات والسرايا العاملة في أوروبا وأعطوا دفعا جديداً للنشيرة الأنصار التي كانت تصدر في الخارج (كان المسؤول عن هذه النشيرة الإخوة: أبو الليث رحمه الله والأخ أبو فارس (رشيد رمدة من ولاية تبسة) فك الله أسرهم من سجون ساركوزي)

فلقد كان الشيخان رحمهما الله مثالا حيا للأخلاق الحميدة والتآزر والتعاون والجد في العمل لهذا الدين والإخلاص له (نحسبهم كذلك) ..

ولقد بلغني عن أحد الإخوة أنه حينما كان في السجن رفقة الشيخ السعيد قاري، كان الشيخ السعيد

عليه وعلى بقية إخوانه بالفرار من سجن لامبيز بباتنة.. وقد ساهم الشيخ السعيد في التخطيط لعملية الهروب من هذا السجن بمعية بعض حراس السجن وكذا بعض الإخوة من خارج السجن (وعلى رأسهم الشيخ أبي إبراهيم مصطفى رحمه الله أمير الجماعة السلفية للدعوة القتال). وقُتل الشيخ السعيد في منطقة جبل الوحش بولاية قسنطينة في صيف 1994م، حيث كان على متن شاحنة رفقة بعض إخوانه في مهمة جهادية، فاشتبكوا مع طليعة للجيش كانت في مهمة تمشيط بتلك المنطقة، فقتل على إثرها، ففاضت روحه على ثرى تلك المنطقة، فرحمه الله رحمة واسعة.

يسألهم عن الشيخ مصعب، وأول سؤال سألهم عنه.. هل الشيخ مصعب يحفظ كتاب الله أم لا؟

لأن الشيخ السعيد من الذين يولون عناية كبيرة بكتاب الله وقد ترك لنا الشيخ كلمة لو وزنت بالذهب لرجحت كفتها!!، حيث قال رحمه الله: "والله إني لأرجو أن يدخلني الله الجنة بحبي لكتابه، فهو أرجى عمل صالح عندي" وهي كلمة بالغة الدلالة على حبه وإجلاله لكتاب الله وتأدبه معه..

يقول هذا رحمه الله وهو من هو، فلو تعرف ترجمته لبكيت على نفسك عوض الدمع دما سكيبا، فهو الذي بدأ الجهاد سنة 1978م، ولم يغترّ بجهاده رغم أنه طاف الأرض مشارقها ومغاربها هجرة في سبيل الله.

وفي هذا درس لكل مجاهد أن لا يغتر بوقوفه ساعة في الصف في سبيل الله، فدين الله كل لا يتجزأ، فلا بد أن نحیی كتاب الله بيننا ونعمل بأحكامه ونطبقها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:7]

ولما انقضى فصل الصيف وبحلول شهر سبتمبر 1994م قُتل الشيخ أبو عبد الله أحمد أمير الجماعة الإسلامية المسلحة، ودخل إلى منطقة الشرق الشيخ أبو ثابت علي الأفغاني رحمه الله (المستشار العسكري للجماعة والنائب الثاني للأمير الوطني) والتقى بالشيخ مصعب رحمه الله، وتدارسا الواقع وما آلت إليه الأوضاع..، ثم قررا الدخول إلى منطقة الوسط لدراسة تعيين أمير جديد على الجماعة (وكان ذلك وفي آخر شهر من سنة 1994م)..، وعندما كانا في باتنة وقع الوفد في كمين للجيش الوثني، فقتل الشيخ مصعب والشيخ أبو ثابت علي ونجا من الكمين الشيخ أبو ريحانة فريد عشي.

* * *

فرحمك الله يا أبا أيمن مصعب.. فقد قمت بحق العلم - كما نحسبك - فأتبعته بالعمل، وقمت بحقه في وقت تخاذل فيه كثير من أهل العلم عن الجهاد.

فقد جاهدت بلسانك وقلمك ونفسك ومالك، فكم ألقيت من خطب وكلمات، كنت جاهداً فيها لإيصال الحقيقة إلى الناس، غير مبالي بلوم اللائمين، وعذل العاذلين، فقد كنت - كما نحسبك - ممن لا تخاف في الله لومة لائم.

فقد قررت وأكدت بقولك وعملك؛ أن العلاقة بين العلم والجهاد لا ينبغي أن يكون فيها انفصام، وإنما تقوم على التكامل والتلازم، فالعلم الشرعي يدعو إلى الجهاد، والجهاد المشروع لا بدّ له من علم يُسدده ويُقوّمه، ولا ينبغي عزل العلماء عن ساحات القتال، فليسوا أكرم من رسول الله ﷺ الذي غزا وقاتل بنفسه.

لقد أثبت أن دور طلبة العلم لا يقتصر على إصدار الفتاوى، ولا يليق بهم أن يقتصروا على تحريض الناس على القتال، وإنما الواجب عليهم أن يكونوا في طليعة المقاتلين، وفي مقدمة صفوف المجاهدين، كما كان شيخ الإسلام رحمه الله يقف موقف الموت، وأعظم منه رسول الله ﷺ، فقد كان يشهد الغزوات، ويقا تل بنفسه، ويقتحم غمار الشدة، ولقد كان في أصحابه من يكفيه، ولكن سُنَّته أن يقرن قوله بعمل.

فلقد حاكيت سيرة أصحاب رسول الله ﷺ الذين حملوا العلم، وزينت سيرهم بذكر المشاهد التي شهدوها، وتوّج عطاؤهم بالقتل في سبيل الله، كانوا يطلبون القتل في سبيل الله ويتغون مظانّه، فقد كانوا يعتبرونه فخراً وأجراً، ويفرّون من الموت على الفرش، غاية منى أحدهم أن تحترق الرماح جسده، أو تمزقه السيوف في سبيل الله، فيلقى قدره وهو يردد مبتسماً: ((فزت وربّ الكعبة))، ولربما دعا بعضهم لنفسه أن لا يضمّه قبر، وأن يُحشر من حواصل الطيور وبطون السباع.

فلقد جمعت بين فضل سبق وفضل الصدق. فكنت صادقاً في دعوتك، ونحسبك ممن يصدق فيهم قوله سبحانه وتعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾.

قُتل الشيخ مصعب، ولم يكن قتله خسارة وإنما ربح ومغنم، ولئن حزنا على فقدّه فإننا نفرح له، فقد نال ما تمنى، ونرجو أن يكون أمن الفتنة، وحاز رضا الله، ويكفيها رضا أن نراه فارق الدنيا ثابتاً لم يغيّر ولم يبدّل، وإنما انتصر على عدوه، حيث قُتل على مبدئه الذي أعلنه، فليس في الشهيد خسارة، وإنما الخسارة فيمن ينتكس على عقبه فيترك طريق الحق، ويضع يده في يد عدوه، معلناً تراجعاً عن الطريق، ناسفاً بيده كل بنية بناءه من جهاد وتضحية.

قتل رحمه الله فسالت دماؤه ثم فاضت روحه، وأوسمة الشرف من دمائه الزكية قد زينت جسده الطاهر، فنسأل الله أن يُبعث يوم القيامة ودماؤه تسيل؛ اللون لون الدم، والريح ريح المسك.

* * *

وهكذا رحل عنا الشيخ مصعب رحمه الله، فذهب للقاء ربه، وتركنا نقاسي وسط هذا الركام من الفساد المستشري، بسبب هؤلاء الحكام الملاءمين الذين ملئوا السهل والوادي بفسادهم وإفسادهم..

رحل عنا ذاك الطود الشامخ، الذي عرفته منابر مساجد قسنطينة، كما عرفته جموع الفقراء والمساكين. رحل عنا ذاك الجبل الأشم، الذي عرفته جبال الجهاد والاستشهاد بالجزائر، فلطالما أذاق الكفر السم من خلال الغزوات التي قادها..

رحل عنا القائد القدوة.. الذي لم يكن نصيبه من القيادة أوامر وتعليمات فحسب، بل كان الأب الحنون والأخ الشفوق والمربي...

رحل عنا ذاك الأسد في برائه، الذي كان يقول لجنوده يوم الشدائد "لن تُراعوا"، وما قاد غزوة إلا وأخذ أشد الثغور بأسا فيها.

رحل عنا صاحب القلب السليم.. الذي لا يحمل حقدا للمسلمين..

رحل عنا صاحب القلب الذي حمل هموم أمته، ولكن أمته لم تحمل همه..

رحل عنا صاحب السخاء والجود.. الجواد الكريم بلا امتنان..

رحل عنا صاحب الكلمة الصادقة.. المجاهر بالحق..

رحل عنا الزاهد العابد.. القائم القانت بآيات ربه..

رحل عنا صاحب النفس الطاهرة.. والأخلاق الطيبة، البشوش في وجوه أصحابه..

... نعم رحل عنا بجسده، لكن طيفه وروحه لازالت تعيش بيننا، فلقد خلف لنا تراثا من المواقف

البطولية التي عز على كثير من الناس أن يأتوا بعشرها في هذه الأزمان المتأخرة. فحق علينا أن نحياها بيننا لنحيا بها.

وختاماً.. فإني أوجهها رسالةً إلى كل من عاشر الشيخ مصعب ورافقه، إلى كل صديق له أو قريب أو تلميذ:

هذا هو صديقكم، وقريبكم، وزميلكم، وشيخكم؛ قد قُتل على هذه الحال، فقوموا وموتوا على ما مات عليه، فما في الحياة خير إذا أجمعها الذل، وتحكّم فيها السفهاء.

قوموا وكونوا أحراراً، انتفضوا في وجه الظلم والكفر، ولو لقيتم في ذلك البلاء، ولو أدّى بكم ذلك إلى القتل، فإن القتل في سبيل الله أسمى أمانى المؤمنين.

استعينوا بالله، واغضبوا الدين الله، واعلموا أن في الأمة ذلاً لا يُنزع عنها حتى يُقتل منها طليعة مجاهدة، تُقدّم دماءها طلباً لرضا الله، وإياكم أن تكونوا كالذين قال فيهم ابن القيم رحمه الله: (وأي دين، وأي خير فيمن يرى حرماً لله تنتهك، وحدوده تضاع، ودينه يُترك، وسنة رسوله ﷺ يُرغب عنها؛ وهو بارد القلب، ساكت اللسان، شيطان أخرس، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق. وهل بليّة الدين إلا من هؤلاء، الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم فلا مبالاة بما جرى على الدين، وخيارهم المتحزن المتلمّظ، ولو نُوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل وتبذّل، وجدّ واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه، وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله، ومقت الله لهم، قد بُلوا في الدنيا بأعظم بليّة تكون وهم لا يشعرون؛ وهو موت القلب، فإن القلب كلما كانت حياته أتمّ كان غضبه لله ورسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل).

اللهم تقبّل الشيخ أبا أيمن مصعب بواسع رحمتك، اللهم ارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وأفسح له في قبره، ونور له فيه.

اللهم تقبّله عندك شهيداً، وبلّغه أعلى منازل الشهداء، وأسكنه الفردوس الأعلى، وارزقه مرافقة نبيك في الجنة، وارض عنه وأرضه يا رب العالمين.

هذا ما تيسر ذكره عن الشيخ الفاضل مصعب رحمه الله وسقاه من سلسيل الجنة بمنه وفضله.. وقد ترجمت له بجهد المقل.. فإن لم يكن وابل فطل..

وفي الحقيقة يعجز قلبي عن أداء حقه كاملا وذلك لكثرة المناحي التي ينبغي تجليتها في شخصيته رحمه الله، وإنه ليعتصر قلبي أسا وأما على عدم الإسهاب في ترجمة سيرته الميمونة، وتجليه شخصيته المصونة.. ولقد رغّني بعض الأخوة¹ ممن سمع به أن أترجم له وأكتب عن حياته ولو شيئا قليلا، وكان يتأسف على عدم كتابة سيرة الشيخ مصعب رحمه الله وأمثاله حق* لذلك المتأسف أن يتأفف ويتأسف، فنظرته معقولة وحجته (بضم الحاء) مقبولة..

أما كاتب هذه الكلمات - عفا الله عنه - فحسبه أن قلمه يتصاعد منه الألم وهو يخط هذه الرسالة المتواضعة.. وأرجو أن تكون قد ضمت بين دفتيها بعض ما ينبغي أن يذكر عن الشيخ رحمه الله رحمة واسعة وجمعنا به في عليين مع الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.. وما وسعنا إلا أن نقول في نهاية المطاف: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر من الآية: 10]

وأرجو أن ينفع الله تعالى بهذه الكلمات وأن يكون لنا فيها الأجر يوم لا ينفع مال ولا بنون..

يا ناظرًا فيما عنيتُ بجمعه عذرًا فإنّ أخوا الفضيلة يعذرُ
علمًا بأنّ المرء لو بلغ المدى في العمر لا قى الله وهو مقصّرُ
فإذا ظفرت بزلّة فافتح لها باب التجاوز فالتجاوز أجدرُ
ومن المحال بأن ترى أحدًا حوى كنه الكمال وذا هو المتعذرُ

أخي الكريم هذا آخر ما يسطره قلبي في هذه الرسالة المتواضعة التي:

سألني (إياها) من لا بد لي من امتثال سؤاله الممثل

وهو أخ كريم لا ينبغي أن يُردّ طلبه..

① - وعلى رأسهم الأخ الحبيب أبو عبيدة الجزائري حفظه الله ورعاه، وكان كثيرا ما يلومني على عدم الكتابة عن الشيخ، ولقد حفظت منه كلمة عزيزة على قلبي وهي قوله: (لا بد أن نبكي على من لا بواكي لهم) فصدق والله.

فاللهم لا تجعل ما ألفته قرائحنا مردودا إلينا بالطرد والإبعاد..
و لا ما سطرته أناملنا شهيداً علينا يوم يقوم الأشهاد..
وارزقنا شهادة ننال بها أعلى رتب الزلفى لديك..
وبيض وجوهنا يوم تسود الوجوه وتبيض بين يديك..
فأنت ذو الطول العظيم والفضل العميم..

اللهم وصل أفضل صلاة وأكملها، وأشرفها وأجزلها، على سيدنا محمد، الذي أذهب ظلم الشرك
باجتهاده، وأرهبت أمم الإفك بجهاده وجلاده، وعلى آله الأعيان الأمجاد، وصحبه الشجعان
الأنجاد، ما أومضت بوارق البوارق في ظلمات القساطل، وركضت سوابق الفيالق في صدمات
الجحافل.. وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تمت بحمد الله ليلة الاثنين 16 ذي القعدة 1431 هجرية

الموافق لـ 24 أكتوبر 2010 ميلادية